Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن هذه الملابسات نتبين أن المشاعر النفسية التى لابد كانت مسيطرة على مالك حينئذ كانت تتمثل أساساً فى الإحساس بوحشة الغربة بعيداً عن الأهل والوطن ، وبهوان الموت فى هذه الوحدة المقفرة .

ولذلك نجد مطلع القصيدة كان صريحاً فى التعبير عما يدور فى نفسه حينئذ ، ولم يكن فى حاجة إلى رمز أو تغليف لما فى نفسه ، ولا كانت حاله تساعده على أساليب الرمز والتغليف ، وإنما هو فى حاجة إلى أن يفرغ كل أحاسيسه ومشاعر نفسه حينئذ فى هذا الشعر ، وقد أجمل كل هذه المشاعر فى البيت الأول من أبيات المطلع :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا

فهو يتجاوز الحنين إلى أحبائه ، وإلى أهله وأقربائه ، وإلى الناس بصفة عامة ، إلى الحنين إلى الموطن نفسه ، فصورة الموطن الماثلة فى خياله ، هى صورة النوق الجيدة وهى ترعى فى شجر الغضا ، ومع أنه لم يكن عمله فى هذه الحقبة من حياته الرعى ، إلا أنه لابد قد مر فى طور من أطوار حياته وخصوصاً فى الصبا بالرعى ، كشأن الناشىء فى البادية ، وذكريات الصبا أحب الذكريات إلى النفس ، وحينما يرغب الإنسان فى استعادة ذكريات تؤنسه ، فإنما يستعيد أحب الذكريات إليه ، فلم يكن غريباً أن يستعيد مالك بن الريب صورة صباه فى وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى خيال يؤنس به وحشة واقعه وحاله ، ولكنه فى حقيقة الأمر لا يتخيل عملاً يزاوله كالرعى أو السوق ، وإنما يتخيل شيئاً يؤنسه ، ولذلك لم تكن أمنيته يوماً أو نهاراً ، وإنما (ليلة) لأن الليل عادة رمز للأنس ودواعيه ، وهذه الصورة فى مجملها تمثل مجرد الإحساس بالغربة لذاتها ، بصرف النظر عن الشوق إلى أحد من الناس ، ولذلك كان التركيز على الشوق إلى الموطن نفسه . ويزيد هذا المعنى تأكيدا البيت التالى له ، وهو :

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

فهو فى الشطر الأول يبدى حسرته وندمه على ترك موطنه الذى أشار إليه بلفظ الغضا ، ولكنه فى الشطر الثانى يفيق إلى أن هذا الندم لا نفع منه لأنه قد فات أوانه ، فيلجأ إلى أمنية ليست خيرا من سابقتها ، وهى تمنيه أن لو كان شجر الغضا فى موطنه